أولا : الإطار النظري

يتناول هذا الجزء من البحث إيضاح مدى رعايـــة مجتمعنـــا المصـــري الإسلامي لكبار السن، وذلك بشقيه الإسلامي والتربوي (بنوعيـــن النظـــامي واللانظامي) كما يلي:

١ ــ الرعاية الإسلامية لكبار السن :

لإيضاح الأهمية والمكانة التي يتمتع بها كبـــار الســـن فـــي المجتمـــع المصري، ومدى الرعاية التي وجهها الإسلام لهم، نتناول ذلك مـــن خـــلال ثلاث مرتكزات أساسية تشمل: مفاهيم إسلامية حـــول كـــبر الســـن، وأهـــم التشريعات والتوجيهات الإسلامية لرعايـــة المســـنين، وبعـــض النمـــاذج التطبيقية من القرآن والسنة، وكما يلي:

أ ــ مفاهيم إسلامية حول كبر السن:

١. ما هو حد كبر السن في الإسلام؟ لم يحدد القرآن سنا معينا يبـــدأ فيـــه كبر السن، وإنما عرض له في إطار عرضه لمراحل النمو الإنســـاني فـــي

عدد من الآيات القرآنية (٢٠)، وكذلك لم يحدد حدا لنهايته، بل إن ذلك من المغيبات الخمس التي حجبها الله عن البشر (٢١)، ومع ذلك فقد خاض العلماء في تحديد بدء كبر السن وأرذل العمر بالسنين على عدة أقوال (٢٢)

opeikandl.com

٢. كبر السن وطول العمر نعمة من الله تعالى : يشير القـــرآن الكريـــم لطول العمر باعتباره منة ينعم الله بها على عباده عساهم به يستدركون ما فاتهم في مقتبله. قال تعالى: [بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتـــى طـــال عليهم العمر] (الأنبياء ، الآية ٤٤) في معرض الامتنان على أهل مكـــة بالإمهال واغترارهم به (٢٣). وقال رسول الله صلى الله عليه وســـلم : "خياركم أطولكم أعمارا وأحسنكم أعمالا" (٢٤)

٣. كبر السن مرحلة من مراحل نمو الإنسان تتميز بالضعف والاحتيـــاج : يوضح القرآن أن كبر السن مستلزم للضعف البشري والاحتياج للغير. قال تعالى : [الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثـم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشـاء وهـو العليـم القديـر] (الروم ، الآية ٥٤)، وضعف الشيخوخة ضعفا في الكيان الإنساني كلـه، فالشيخوخة انحدار للطفولة بكل ظواهرها (٢٥)، ولأنه إذا أصابه الكبر، وعجز عن الاكتساب كثرت جهات حاجته من مطعمه وملبسه ومســكنه، ومن يقوم بخدمته وتحصيل مصالحه. (٢٦)

٤. علو شأن المسن ومنزلته واستحقاقه للتوقير والاحترام : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس منا من لم يوقر الكبير، ويرحم الصغير، ويأمر بالمعروف، وينه عن المنكر" (٢٧). وقد جعل الإسلام لكبار السن مكانة رفيعة، ومنزلة عالية وأوجب تقديرهم واحترامهم، وفي المقابل احب لمن في هذه المنزلة ألا يأتي ما يخالفها "لا يحب الله الشيخ الجهول" (٢٨). وفي الصحيح : "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيمة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم .. شيخ زان" (٢٩)

٥. كبر السن لا يعني التقاعد عن العمل: كبر السن ليس مدعاة للتقاعد في الإسلام طالما الاستطاعة قائمة، والقدرة على العطاء مستمرة، وإن تحولت الأدوار، وقلت مشاركة الكبار العضلية لضعف أجسامهم، ووهن عظامهم، لكن يظل للكبار دورهم في الخبرة والحكمة وتدبير الأمور، ولم يعرف الإسلام في تاريخه التقاعد عن العمل بمفهومه الحالي (التقاعد الإجباري) (٣٠)، وإنما يعمل المسلم قدر طاقته مدى استطاعته، ويلاحظ أن التقاعد الإجباري سبب في كثير من مشاكل كبار

السن في العصر الحديث لم تكن معروفة في المجتمعات الإسلامية قبله، فلم يعرف الإسلام التقاعد إلا مع العجز والوصول لأرذل العمر، ولذلك علمنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) التعوذ منها " اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم" (٣١) "اللهم اجعل أوسع رزقك علي عند كبر سني وانقضاء عمري" (٣٢).

٦. كبر السن ليس النهاية : الموت عند المسلمين لا يشكل النهاية للحياة الدنيا، وإنما هو تحول وانتقال من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة الخالدة، وهو في حياته الدنيا يعد نفسه للآخرة بصالح الأعمال، والتقرب إلى الله عز وجل، ويزداد هذا التوجه كلما كبر سنه، وشعر بدنو بدو أجله، وهذا مما يجعل شيخوخة المؤمن متوافقة، فيعطي نموذجا للتوافق المثالي للتعايش مع كبار السن، قد يكون فيه الحل لكثير من مشاكل الشيخوخة التي لم يستطع علماء النفس والاجتماع تقديم تفسير لظاهرة التوافق الجيد، بما عرضوه من نماذج قاصرة عن

تحقيق ذلك (٣٤) وقد سبق الإسلام بتشريعاته لذلك، ونعرض لأهم هذه التشريعات.

ب ــ أهم التشريعات والتوجيهات الإسلامية لرعاية المسنين :

١-حق المؤنة والنفقة : يقرر الإسلام حق المؤنة والنفقة لكل عاجز عن نفقة نفسه أو غير مستكف لها ينتقل واجب الإنفاق عليه لذويه من الأقارب، وكبار السن في مقدمة المستحقين لذلك إن عجزوا عن إعالة أنفسهم (٣٥). قال تعالى : ["ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حوج ولا على المريض حرج ، ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم]. (النور، الآية ٦١). أحد الأقوال في سبب نزول هذه الآية "أن قوما من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كانوا إذا لم يكن عندهم ما يطعمون المريض والزمن "الزمانة هو مرض يدوم زمانا طويلا، وضعف بكبر سن أو مطاولة علة" (٣٦) ذهبوا به إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم وبعض من سمي الله عز وجل في هذه الآية، فكان أهل الزمانة يتحرجون من أكل ذلك الطعام لأنه أطعمهم غير مالكه، فنزلت هذه الآية (٣٧) لتوسيع

دائرة التكافل مع هذه الفئة العاجزة، والآية دليل لمن يوجب نفقة الأقـــارب (٣٨)، والمؤنة الواجبة لمن تجب لهم تشمل : النفقة، والكسوة، والخدمـــة والسكن، وإعفاف الأب (بتزويجه والإنفاق على زوجته)، وكذا أجرة الطبيـب وثمن الأدوية حين يحتاج إليها القريب. (٣٩)

ونلاحظ أن هذا الحق لم يقتصر على الجانب المادي، وإنما تعدى الإنفـاق إلى :

أ) تحقيق رعاية شاملة اجتماعية ونفسية وصحية.

ب) أن هذا الحق مكفول للأقرباء بعضهم على بعـض دون وقـوف عنـد مستوى معين من القرابة.

ج) إن مسئولية الولي الأقرب تتحقق بتكامل الأهل معه.

إن الإعالة الشرعية قائمة على المواساة غير المشروعة إلا بالحاجـــة، والإعالة القانونية الوضعية مردود باشتراك المؤمن عليه، ومقيدة بعـدة شروط للمؤمن عليه والمستحقين بعده. إن الإعالة الشرعية بدافع ربـط الرحمة والمودة والتكافل العائلي، والإعالة القانونية، وإن كان روعـــي فيه رابطة الدم إلا أنها تقتصر عما تحققه الإعالة الشرعية التي يراعـى

فيها كفاية الحاجة من كل الجوانب، بينما الإعالة القانونية نفقة محـــددة لا تفي في كثير من الأحيان الاحتياجات. (٤٢)

٢-تخفيف بعض التكاليف الشرعية مراعاة لكبار السن : تطبيقـــا للقـــاعدة الشرعية "المشقة تجلب التيسير" (٤٣) من ذلك نجد :

أ) إسقاط فريضة الجهاد عن غير القادر عليها : قال تعالى : "[ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج]" (النور ، الآية ٦١) ، و(الفتـــح، الآية ١٧)، فأحد الأقوال في سبب نزول آية النور إسقاط الجهاد عـــن أهل الزمانة المذكورين في الآية (٤٤).

ب) التخفيف عن القواعد من النساء في وضع الثياب لما كانت المـــرأة الكبيرة في السن قد تكون في حالة من الضعف محتاجة من يقوم على خدمتها، وقد لا تجد إلا رجلا من غير محارمها، وقـــد يشـــق عليـــها الالتزام باللباس الشرعي كاملا، خفف الله عنهم بقوله : " والقواعـــد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليـــهن جنـــاح أن يضعـــن

ثيابهن غير متبرجات بزينة" (النور، الآية ٦٠) أي ليس عليهن من الحجر في التستر كما على غيرهن من النساء (٤٥).

ج) التخفيف عن المسن في العبادات : للمسن الأخذ بما رخص فيه الشرع عند الحاجة له بسبب كبر سنه كالتحول من الوضوء أو الغسل للتيمم (٤٦)، وترك القيام في الصلاة إن عجز عنه (٤٧)، وإذا لم يطق الصوم أفطر وتحول للفدية، قال تعالى : [وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين] (البقرة، الآية ١٨٤)، فإن كلمة لا مقدرة أي لا يطيقونه، أو أن المراد يطيقونه حال الشباب ثم يعجزون عنه بعد الكبر (٤٨)، وفي الحج إن عجز بنفسه حالا ومالا لكبر أو زمانة، أو غير ذلك له أن يستأجر من يحج عنه، ودليل ذلك : (أن امرأة من خثعم قالت للرسول صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله إن فريضة الله تعالى على عباده في الحج أدركت وأبي شيخ كبير لا يثبت على الراحلة أو أحج عنه؟ قال نعم) (٤٩) وله أن يقدم بعض المناسك على وقتها مع الضعفة لقول ابن عباس (أنا فيمن قدم النبي (صلى الله

عليه وسلم) في ضعفه أهله (٥٠)، ولن أن يوكل أو ينيب من يرمى عنه... وإلا يبيت بمنى (٥١).

د) تخفيض التكاليف المادية الشرعية عن كبار السن إذا عجزوا عن أدائها : وذلك مثل إسقاط النذر إذا لم يستطع أن يؤديه. (مر النبي (صلى الله عليه وسلم) بشيخ كبير يتهادى بين أبنيه، فقال ما بال هذا؟ قالوا يا رسول الله نذر أن يمشي. قال إن الله عز وجل لغني عن تعذيب هذا نفسه. قال فأمره أن يركب) (٥٢). وتخفيف الكفالة إذا لزمت كبير السن، كما حدث مع أوس بن الصامت في مظاهرته من امرأته والحديث طويل، ويعطي صورة تطبيقية للرعاية الأسرية لكبار السن واحتمالهم، ومن عبارات الحديث التي تخص كبار السن ورعايتهم (وكان شيخا كبير قد ساء خلقه.. وجعلت أشكو إليه سوء خلقه والرسول يقول: يا خويله ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه..، فقال لي رسول الله (صلى الله عليه وسلم):مريه فيعتق رقبة، قالت: فقلت يا رسول الله : ما عنده ما يعتق. قال فيصم شهرين متتابعين: قالت : قلت والله إنه لشيخ كبير ما له صيام. قال: فليطعم ستين

مسكينا وسطة من تمر. قالت: قلت والله يا رسول الله ما ذاك عنـــده. قالت: فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) فإنا سنعينه بفرق (وعـــاء من خوص مضفور) من تمر، فقالت: يا رسول الله وأنا سأعينه بفـوق آخر. قال: قد أصبت، وأحسنت فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم اســتوصي بابن عمك خيرا، قالت، ففعلت). والفرقين أقل من الوســعة بكثـير إذ هما عشر الوسعة (٥٣). وحق تخفيف الأعباء المادية عن كبار الســن مكفول لكبار السن في المجتمع الإسلامي، سواء كانوا من المســلمين أو غيرهم، وقد حط عمر بن الخطاب الجزية عن اليهودي حين وجــده يسأل الناس.. (ووضع عنه الجزية) عن ضربه وقد طبق هذا المبـــدأ أيضا خالد بن الوليد لأهل الحيرة (٥٤) وعمر بن عبن العزيـــز كـــان يرسل لعماله بدفع الجزية عن المســـنين وإعالتـــه مـــن بيـــت مـــال المسلمين (٥٥) وهذه هي قاعدة التعامل في الإسلام (فالجزية لا تؤخذ من الشيخ الذي لا يستطيع العمل ولا شيء له) (٥٦).

هـ) رعاية كبار السن داخل أسرهم : يؤكد الإسلام على حق كبار السن في الرعاية الكريمة داخل أسرهم، وقد سبق في حديث المجادلة خويلة حث الرسول (صلى الله عليه وسلم) على حسن رعاية زوجها واحتماله، وكذلك حين سمح لزوجة هلال بن أمية أحد المخلفين في غزوة تبوك أن تقوم على خدمته، حين قالت : (إن هلال شيخ ضائع، وليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا) (٥٧) . ووصل الأمر إلى حد تعيين أحد أفراد الأسرة للقيام على خدمة الكبير إذا دعت الحاجة إلى ذلك (٥٨)، ومن أروع مظاهر الرعاية الأسرية لكبار السن داخل الأسرة رعاية الوالدين والتي اهتم بها القرآن والسنة النبوية.

ج ــ بعض الصور التطبيقية لرعاية كبار السن :

١- رعاية الوالدين باعتبارهما نموذج لرعاية كبار السن : أشار القرآن للوصية بالوالدين ووجوب الإحسان إليهما بتناول موضع واحد عوض فيه القرآن نموذج لرعاية الوالدين خاصة كبار السن : [وقضى ربك

ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا] *" (الإسراء، الآية ٢٣ ــ ٢٥)، فأول الآيات وصية بالوالدين والإحسان بهما، ثم أمر بعدم أذيتهما ولو بشيء صغير حقير ــ أف ــ ولا تنهرهما بالكلام ضجرا ورفع الصوت .. وإنما نهى عن أذاهما حالة الكبر وإن كان منهيا عنه على كل حال، لأن حالة الكبر يظهر فيها ما يضجر ويؤدي وتكثر خدماتها (٥٩)، ثم بعد النهي عن الإيذاء بيان لأسلوب المعاملة الحسنة وحسن الرعاية لهما " وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة". ثم دعوة وتعليم الدعاء لهما "وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا" وهو بر ورعاية تمتد إلى ما بعد الوفاة، فدعاء الولد الصالح لوالديه مما لا ينقطع بعد الوفاة (٦٠) وحتى لا تتأثر الرعاية سلبا بتكاليف شرعية أخرى جعل الشرع بر الوالدين مقدم على الجهاد (٦١) ومقدم على النوافل في العبادة

(٦٢)، والبر بهما واجب ولو كانا مشركين " وإن جـــاهداك علـــى أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعمها وصاحبهما في الدنيا معروفا" (لقمان، الآية ١٥) (٦٣)، ومنع أن يكون الولد سببا للإضرار بـــالأب أو الأم " لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده" (البقـــرة، الآيـــة ٢٣٣). ومنع حتى الإيذاء غير المباشر من الولد لهما بأن لا يسب أبـا أحد فيسب أباه (٦٤)، وجعل برهما طريقا للجنة (ألزمهما فإن الجنـــة تحت أقدامهما) (٦٥) وبرهما سببا في إجابة الدعوى كما في حديـــث الغار (٦٦) وجعل عقوقهما من أكبر الكبائر.